

أصوات البيان

128 @ يُهْلِلْ . فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْ لِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمُّيَّا وَبُكْمَّا وَصُمُّمَّا مَّا وَاهُمْ
جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَّاتُ . زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } . . .
تنبيه .

في آية (طه) هذه وآية (الإسراء) المذكورتين إشكال معروف . وهو أن يُقال : إنهم قد دلّتا على أن الكافر يُحَشر يوم القيمة أعمى ، وزادت آية (الإسراء) أنه يُحشر أبكم أصم أيضاً ، مع أنه دلت آيات من كتاب الله على أن الكفار يوم القيمة يبصرون ويسمعون ويتكلمون . كقوله تعالى : { أَسْمَعْ بَرْهَمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا } ، وقوله تعالى : { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنَّهُوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا } ، وقوله تعالى : { رَبِّهِمْ رَبِّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا زَعْمَلْ صَالِحًا } ، إلى غير ذلك من الآيات . وقد ذكرنا في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب . عن آيات الكتاب) الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه : .

الوجه الأول واستظهاره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقته . ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها ، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم في غير موضع . الوجه الثاني أنهم لا يرون شيئاً يسرهم ، ولا يسمعون كذلك ، ولا ينطقون بحجة ، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه . وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وروي أيضاً عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره . وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرون منزلة العدم لعدم الانتفاع به . كما أوضحتنا في غير هذا الموضع . ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه . ألا ترى أن الله يقول في المنافقين : { صُمُّ بُكْمُ عُمُّيُّ } ، مع أنه يقول فيهم : { فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةِ حَدَادِ } ، ويقول فيهم : { وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلَهُمْ } أي لفصاحتهم وحلوّة ألسنتهم . ويقول فيهم : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء : فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم ، ومن ذلك قول قعنبي بن أم صاحب : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ } وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء : فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم ، ومن ذلك قول قعنبي بن أم صاحب : % (

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا = ذُكِرَتْ بِهِ % وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عَنْهُمْ أَذْنُوا ()